جزيرة الذكور

رواية

عزيز بنحدوش

كل تشابُه في الأسماء أو الأحداث أو الأمكنة

أو الأزمنة ما هو إلا محض صدفة لا غير.

لم يكن إدريس يعرف أو حتى يتوقع ما ستؤول إليه الأمور، ولا ما ينتظره من أحداث. لا علاقة للاسم بمولاي إدريس زَرْهُونْ،

ولم يكن إدريس هذا اسما مرصعا بالأرقام، فلا هو الأول ولا الثاني ولا الثالث... لقد كان واحدا من الدراويش واكتفى. لم يكن يوما قادرا على تصور أو تخيل ما وصل إليه من تشابك العلاقات التي نسجت خيوطها قطعةَ نسيج وظيفتها الإظهارُ أكثر من الإخفاء. لم يعرف كيف وصل ولم يكن يوما مسؤولا عما فعل، هي الظروف تصنع الإنسان وتنسج العلاقات.

وجد إدريس نفسه، يوما، على مرمى حجر من شيخ في السبعين ومدير مجموعة مدارس دوار "تِمْغَلِدْتِ" (يعني الاسم بالأمازيغية "الصخرة العظيمة"، التي تصلح للمراقبة) التابعة لحوض جزيرة الذكور.

الحر شديد والمكان شبه مهجور، عارٍ من الناس. وسائل نقل لم يعتدها إدريس من قبل. جلابيب في كل مكان. لغة أخرى، هي لغته في الأصل. كانت الأرض عالما بلا خرائط.

لم يكن يعرف بوجود تلك البقعة من الأرض على الأرض. لم يكن ليعترض على وجودها ولا على وجوده فيها. التقيا. كانت فارغة من الناس والنباتات. فيها القليل، القليل من الحياة، لكنها كانت فضاء للتصوف، للخلوة، للشيخوخة أو حتى للموت.

جاءها حاملا كل ممتلكاته على ظهره المقوس كثيرا إلى الأمام. بعض الكتب والأوراق الرسمية: بطاقة الهوية الوطنية وقرار التعيين في دار الحاتمي للعلم والمعرفة كمدرّس لمادة الفلسفة. كان يحمل كل أدوات النوم، من فراش وأغطية وملابس، وما

زودته به أمه من مأكولات كي يعيش في انتظار أن يحيا. حمل كل هذا والبعض من ثقل السنين والكثير من الحزن على الفراقات واللقاءات التي كانت دائما صادمة.

لم يعترض على ما هو عليه. فرح بخروجه من عالم التسول وعدم الفاعلية إلى مجال العمل الذي كان بالنسبة إليه الحلمَ المنتظر. نعم، جاء متأخرا، لكنه أشرق قبل أفول ما تبقى من آخر العمر. بعد خمس سنوات عجاف، فتح الوطن حضنه وعانق إدريس، قبّله على جبينه وقال له: "اذهب وانشر العلم والمعرفة. عَرِّفِ الناس بالناس وبأنفسهم. حارب الجهل، كما فعل سقراط وأفلاطون وابن سينا وابن رشد".

بعدها، فتح الوطن ذراعيه واستجمع شفتيه من على جبين إدريس. بدأت رائحته تبتعد شيئا فشيئا، حرارة صدره تتناقص تدريجيا. ابتعد الوطن. بكى إدريس كثيرا، لأنه بعد ذلك، أحسّ بالغربة. حل بجزيرة الذكور حاملا كل ممتلكاته، وأهمها قبلة الوطن على جبينه.

عندما وصل، كانت المحطة فارغة. فضاءات ممتدة بلا هوادة، كثافة سكانية قليلة. المسافات هناك أكبر من الناس. نظر شرقا ثم غربا. كان الشرق كالغرب، لا إحداثيات. أنزل حقيبته الظهرية كي يستريح منها وتستريح منه. ألقى بها على الأرض، ثم انسحب يبحث عن مكان للمبيت في انتظار كراء منزل للإقامة في جزيرة الذكور، الأصل والذاكرة والكثير من وجع الحياة.

الأرض جرداء إلا من بعض البنايات. فنادق، مقاه، دكاكين، والكثير من الأعين التي تلاحق إدريس وتقول: "معلم جديد، هذا موسم حضورهم أو هجرتهم إلى الجنوب".

ينظرون وينظر. يستغربون ويتساءلون. يستغرب هو الآخر ويتساءل أيضا: "من أنتم؟، من أنا؟ ماذا تفعلون هنا وماذا سأفعل؟ ماذا تحملون خلْف هذه الوجوه التي كتب عليها الزمن قصصا وحكايات؟". يتفحص الوجوه وتتفحصه الأعين الأخرى. ينظر إلى ألوان الناس. يستخرج أشكالا هندسية من وجوههم. يعثر على الدائري والمثلث وأشكال أخرى لم تُمنَح الفرصة للتشكّل بعدُ. بين كل تلك الوجوه ظهر فندق لا اسم له، لكنْ سيعرف إدريس لاحقا أنه "فندق حسن". يُعرف الفندق باسم صاحبه. كان المكان غريبا، مثيرا، مُتسخا وبسيطا بالطبع.

صعدا الأدراج المؤدية إلى الطابق الأول. هنا يأكل الناس في الأسفل وينامون في الأعلى. كان حسن المرافق هو أحد مسيري تلك الدار. وصلا إلى الغرفة. لم يكن إدريس قادرا على الاختيار. ترك الأمر للغرفة التي فتحت أحضانها، لكنها لم تقبّله على جبينه كما فعل الوطن.

عاد إلى المحطة، حيث ترك كل ممتلكاته التي انتزعها من الآخرين: الحذاء من الأخ واللحاف وبعض من جدائل شعر الأم. قيل إن وسادته صُنعت من لحية أبيه، فقد كانت مريحة جدا أثناء النوم، فقط لأنها لم تكن متعصّبة. عاد إلى المحطة، وجد حقيبته

الظهرية حيت تركها، لم تتحرك. عليها الكثير من التراب، ينقصها نسيج عنكبوت وبعض الحمام والقليل من خيوط الإيمان لتصبح مزارا.

كم هو آمنٌ هذا البلد، أو ربما لم تكن أشياء وممتلكات إدريس مغرية كفاية، لتُسرَق.

حمَلَ عُدة الحياة وأقحم نفسه وإياها في غرفة أجمل ما فيها انفتاحها على الفراغ. كل شيء أمازيغي حتى النخاع، الناس، الأماكن والملابس. حتى الإسفلت بدا أمازيغيا شاحبا ونحيفاً. الممرات والطرقات لا تسمح بالمرور ولا تقبل الازدواجية، إما أن تمر أو أمرّ، لا يمكن أن نمر معا. بدأ الضجر قبل العمل.

خرج المدرّس من قواعد اللغة العربية ليجمع أشلاء هوية ضاعت منه على مضض، هو الأمازيغي في الأصل، لكن الزمن والأمكنة حالاَ بينه وبين تعلم لغته، هويته. أحس بالغبن، ثم قرر تعلم لغة الناس من الناس، لقد كان مستعدا، فالدماء أمازيغية واللسان عربي والقلب لم يمتلئ بالحقد بعد.

غريبٌ هو الآن في وطنه، وفي كل مرة تزداد غربته لتصبح غربتين، واحدة للجنوب والأخرى للشمال. وجد نفسه، هو الأمازيغي بالأصل، يتسوّلُ أصول الكلام.

بحث في ذاكرته عن بعض من لسانه فلم يجد سوى كلمات قليلة تعني الخبز والماء وأسئلة مثل: كيف حالك؟ من أنت؟ ما هي وجهتك؟ عثر على كلمات أخرى يُحكَى أنها بذيئة أو لنقل إن

الناس منحوها هذه الصفة فقط لأنها أسماء لمناطق في الجسد موجودة كأشباح لم يتم الاعتراف بها بعد. أغلق ذاكرته واستجمع بقايا أعضائه الطويلة المترامية في ذلك المكان القصير. حين همّ بمغادرة الغرفة، ارتطم رأسه بالباب البني الصغير المتآكل. لم يكن أستاذ الفلسفة بالرجل الطويل ولم يكن الخروج يتطلب الزحف على البطن. لم تكن هناك حرب معلنة. عادة يضرب الإنسان الأشياء، يرتطم بها، لكنْ هذه المرة الباب هو من ضرب إدريس. كانت الضربة مقصودة، رسالة، خاصة أنها كانت على ناصيته. لقد أحدثت جرحا داميا على الجبين الذي قبّله الوطن يوماً. كان من الضروري ألا يجزع من الجرح أو يُظهر بعض القلق، لأن هذا سَيُنقص من قيمته، من صبره وجلَده. ففي الوطن، الرجال لا يبكون ولا يتألمون. يتحملون الضرب والجوع والألم ومرارة اللقمة وذل الاحتقار ولا يصرخون، إنهم أبطال لا ينكسرون علانية بسهولة. الرجل لا يُقهر. يُجرح ولا يُبالي، يمرض ولا يهتم. أسنانه تتساقط، هكذا أفضل، يجب أن يكون الإنسان خشنا (حرْش) كي يُعَدّ رجلا.

سأله حسن عن سبب الدماء على جبينه، فأجابه ضاحكا: كنت أتعرّف على الغرفة فلامستُ جدارها الأزرق. مرت يدي على الزرقة كأنها بحر من نهود الصبايا. بالغتُ في اللمس حتى ظن الباب أنني أغازل غرفته وأراودها عن نفسها. بعد ذلك أعاد لي رشدي وعرفت أن لمس إناث جزيرة الذكور ممنوع، حتى إن

كان الزوج غرفة وبابا. ضحك حسن بالأمازيغية، ضحك إدريس لضحكه، لكنْ بالعربية.

الرياح هنا قريبة جدا من الناس، لها رائحة، لون، سرعة واتجاه. لم ير إدريس رياحا منظمة كهذه، غير أن الأمر طبيعي، فقد كانت رياحا أمازيغية. حتى الزمن بدا أمازيغيا، لم يكن متأخرا ولا متقدما، لكنه كان واقفا، أو على الأقل يستريح. كل الأزمنة التي عرفها إدريس لا تتعب، لكن الزمن الأمازيغي يفعل ذلك.

عندما طلب من صاحب الدكان قطعتين من الخبز، ضحك الرجل بالأمازيغية وقال: "تْرِيتْ مَاضْلِينْ؟" أي "أتريد ماضلين؟". لا علاقة للاسم بأُولبرايت، ففي جزيرة الذكور "ماضلينْ" هي قِطَعُ كيك. فكر إدريس قليلا، لم يعترض، ففي نهاية الأمر هي دقيق بشكل آخر. اشترى علبة كبيرة تحتوي ست قطع، ثم سأل صاحب الدكان من جديد عن الخبز، غير أن السؤال لم يثمر إلا المزيد من الغباء، إذ استمر صاحب الدكان في الاستفسار: "تْرِيتْ مَاضْلِينْ؟" (هل تريد قطع كيك؟). ضحك إدريس بالعربية كثيرا ولام نفسه، هو الأمازيغي في الأصل الذي لا يستطيع الضحك بلسان قومه. لم يشتر علبة أخرى، ترك صاحب الدكان وفمه مازال مفتوحا وأسنان بلاستيكية ناصعة البياض مزروعة فيه، مُستعدة لالتهام أي شيء. سحب المدرّس جيبه من فم الرجل، ثم بدأ يبحث عن مكان عمله، كيف هو؟ أين يوجد؟

رغم أن الفضاء مليء بالفراغات، كان من الصعب بلوغ دار الحاتمي للعلم والمعرفة. كان لا بد من طلب المساعدة، لكنْ بأي لسان؟ سأل بعض المارة الذين يؤثثون المكان، لكن كان عليه أن يجيب أولا عن العديد من الأسئلة: من أين أنت؟ ماذا تفعل؟ هل لك قبيلة؟ هل أنت متزوج؟ أحس بأن كل الناس أعوان سلطة (مْقَدّمِينْ وشْيُوخْ). أجاب، ثم أجاب مجددا حتى تحول الأمر إلى استنطاق، لأنه كان عليه أن يعيد الإجابة عن الأسئلة نفسها مع كل محاولة للانفتاح على الناس، أهل جزيرة الذكور.

وصل دار الحاتمي للعلم والمعرفة. وقف أمامها. كان الباب مغلقا وعلَم الوطن الذي قبّله على جبينه يوما يرفرف بحرارة شديدة وغريبة كذلك. لم ير إدريس علما يرفرف بهذه الحرقة من قبل. كان لسانا يزغرد دون هوادة. ترك العلم لزغاريده وعاد إلى غرفته، أو غرفتهم التي أجّروها له حتى يحتمي من البرد. أخرج بعض ملابسه، فاكتشف أنها كانت عربية والبرد كان أمازيغيا.

أصبحنا اثنين، نحن وهُم، رغم أن الوطن واحد وجزيرة الذكور محدودة بالبحر. كان من الضروري أن يتعرف إلى الأساتذة الجدد حتى يتقاسم معهم أعباء العيش. تمكّن، بمعية أستاذين للغة العربية، من كراء منزل صغير، لكنه كان كافيا لانتظار الحياة.

اجتمعت الفلسفة واللغة العربية في منزل أمازيغي، كانت نوافذه تطل مباشرة على دكان جوزيف اليهودي ابن سَعْدَة، الذي يبيع

ماء الحياة للأموات من الناس. كان دكانه صغيرا، متسخا، باعه لاحقا ليصبح متجرا لبيع اللحوم الحيوانية.

كان جوزيف ابن سَعْدَة أمازيغيا أكثر من إدريس، قريبا من أهله أكثر منه، فقط لأنه يمتلك إكسير الحياة ولسان الناس.

تشارك الأساتذة المنزل، بل كانوا متسامحين أكثر لاستضافتهم بعضَ الكائنات الحية الأخرى. كان الفضاء يتسع للذباب وبعض الخنافس وعائلة كبيرة من الفئران، تأكل ما يأكلون وتختفي عندما يستيقظون ثم تصحو عندما ينامون. وحده الذباب كان يعمل على الدوام.

كلما أراد الأساتذة اللهو والمرح قليلا، استيقظوا في وقت دوام الفئران، يحاصرونها، يقتلونها ثم يضحكون ويفتخرون كما تفعل القطط. بعد القتل، يجلسون، يفتحون النوافذ المطلة على البحر، يُعيدون اجترار ما رضعوه من أثداء إحدى زوجات الوطن، الأدب والفن وأشياء أخرى كثيرة لم تُهضم بعدُ جيدا. و في ذات صباح اكتشفوا أنّ رصيدهم من الحياة يتناقص وعرفوا أن رواتبهم لن تُمطر قريبا، خاصة أن الموسم جاف على الدراويش الذين عليهم شدّ الحزام أكثر.

الرجل هو من يستطيع أن يعيش دون مال، يعبُر دون قناطر، يُشفى دون دواء ويحلم دون أن ينام، صعبة هي الرجولة فيكِ جزيرةَ الذكور.

إدريس الآن هناك، وماء حياة جوزيف يحاول جاهدا إسعافه من البرد والطرد ومن التشظي.

كان طعم مائه لاسعا، قاتلا، ترشف رشفة وكأنك تشرب النار أو ترتوي بحمم بركانية. الكحول حارق جدا، ورغم رغبتك في الامتعاض والزج بعناصر وجهك في كل الأمكنة، عليك أن تكون رجلا. أُترك النار تأكلك من الداخل وابتسم. لا شيء يَقهر الرجل في جزيرة الذكور حتى شرب حمم جوزيف المُتّقدة. هي رشفة من جهنم كي تدخل الحياة مجال الممكنات. لكنْ ما الحياة؟ حُكي أن شفتَي إدريس كانتا تعشقان قبلة النار الجوزيفية تلك، وأنه أعلن أنه من الجميل جدا أن يحس المرء بمسار الجحيم حتى استوائه في القعر.

عندما احترق مدرّس الفلسفة من الداخل، انتقل دخان الانفجار إلى أعلى. أحس بعد ذاك، شيئا فشيئا، باستقلالية كل عضو فيه عن الآخر. يده اليمنى هناك، اليسرى لم يجدها. رجله مستلقية أمام المطبخ وهو لا يستطيع بلوغها. انتشرت كل الأعضاء حتى ملأت الفراغات. إدريس الآن ثمل، حيّ ويمنح الحياة. لم يعد كما كان. لقد أعاد ترتيب المكان ومنح نفسه من الزمن ما يكفي للانتشاء.

لا شيء مجاني، يجب أن يحترق أولا كي ينبعث من رماده كطائر الفينيق أكثرَ رونقا وبهاء.

أجملُ ما في جزيرة الذكور ليلُها، يصعب أن تتبين الأشياء جيدا. عالم ضبابي، أشباح أو ظلال أشياء. الليل هناك فضاء للرسم، للحلم وللتيه، فاحلم كما تشاء واملأ السواد بحرا كما تبتغي. أنت حر في الليل أكثر من النهار. تباطأت سرعة أعضاء إدريس وغابت استجابة بعض الأعضاء الأخرى. أدرك أنه حيّ وعرف جودة بضاعة جوزيف. يتذكر ويقول: "ما أعجبني في الحياة هو ترنحي وعدم هيمنة بعضي على بعضي الآخر، لقد صِرت مملكة للحرية. تحررتْ نفسي من نفسي ثم تقيأت حياة جوزيف، أو ما تبقى منها مع البعض القليل من أحشائي". ثمل إدريس الآن. أمسك رأسه بما تبقى من يديه، عصّبه، ثم وضع القليل من الملح في فمه حتى لا يتقيأ أحلامه ونام.

حضر الصباح. لم يكن إدريس من اختار ذلك، لقد حل ويجب أن يبدأ من جديد، لكن الرجل غير مستعد، لأن الحياة التي اشتراها من جوزيف بأربعين درهما غادرته وتركت وراءها صداعا رهيبا في الرأس وغثيانَ معدة ممتلئة بالجوع. أدرك في ذلك الصباح أن شيئا ما بداخله أو خارجه هو المسؤول عما فُعِلَ بكل الأعضاء، الرأس، المعدة، الأطراف، وبعض الكدمات على الجانب الأيمن الناتجة عن السقوط، رغم أنه لا يتذكر أنه سقط. عرف أن هناك من يتلاعب بكل الأعضاء ويجرّها لفعل ما لا تريد. استغرب أمرَ جسده الذي كان منتشيا بالأمس وهو الآن ينتفض.

لقد أحدث ماء الحياة الذي اشتراه من جوزيف بن سَعْدَة فِتنة بين كل أعضائه، الداخلية والخارجية، لكنْ سرعان ما فَطِنَ الأستاذ إلى الأمر، فماء الحياة كان يهوديا والمنزل أمازيغيا وإدريس من هناك، قرب النهر العميق الجاف المليء بشجر الجوز واللوز؛ كثرةٌ لم تنسجم بعد.

كانت اليدان متسامحتين جدا وكريمتين، فرغم كل ما فعله الرأس الأخرق بهما بالأمس ها هما الآن تتنازلان، تنسيان الإساءة وتُعصّبان تلك الرأس اللعينة العنيدة. تعاونت كل الأعضاء حتى وقف، لكن إدريس لم يكن يعرف لماذا كان عليه الوقوف أصلا، بعد أن فارقته حياة جوزيف أصبح، ميتاً إكلينيكيا.

مر اليوم بصعوبة كبيرة وكان عليه أن يجيب عن سؤال بدا له هاما: لماذا تبدأ الحياة بطعم النار والحمم وتنتهي بصداع الرأس والغثيان الباعث على الانهيار؟

عرف أنه لكي يحيا عليه أن يموت أولا وأخيرا. كانت الخطوات والأفعال الأولى على تلك الأرض مثل كل فعل يقوم به الإنسان لأول مرة، تقبيل فتاة، رؤية البحر، السفر في القطار، ركوب الخيل والنساء...

كان مكان عمل إدريس، بالنسبة إليه، مكان عبادة، دخل بالقدم اليمنى، قال: "باسم الله"، رغم أنه مازال يشمّ رائحة جوزيف في المكان.

تحدث كثيرا عن وجه المدير، الذي كان بمثابة آثار تخبر وتسمح بإعادة الاستحضار. كانت نبرة صوته طفلية نوعا ما. كان يقول وهو يتحدث، ناصحا الأساتذة والأستاذات، موجها لهم النصائح "مربما" قاصدا "لربما". عرف إدريس من توقفه على هذا الخطأ الذي ارتكبه رئيس مؤسسة تربوية أنه معلم بامتياز، لأن وظيفته هي تصحيح أخطاء الآخرين، لكنْ ربما ليس فقط الأخطاء اللغوية. سرعان ما أدرك أنه أخطأ هو الآخر عندما أغفل ما كان يُقَال وانتشى ببطولاته اللغوية، وبّخَ نفسه قليلا، أخذ جدول حصصه وعلبة طباشير أبيض وإسفنجة لمسح السواد عن السبورة.

طلب منهم المدير الانطلاق، دون أن يُقبّل أي واحد منهم على جبينه كما فعل الوطن من قبل.

خرج إدريس حاملا أدوات العمل. لم يعد يتذكر، هل بالقدم اليمنى أم اليسرى، غير أن الأمر لا يهم كثيرا عند الخروج. لم ينتبه، حتى ارتطم رأسه بالباب الصغير للدار، الذي كان كبيرا وقت الدخول.

تضرب الأبواب الصغيرة هنا الرؤوس العالية كثيرا. من ضرب من؟ لم يعد الأمر هامّا. لقد سال الدم من جديد، فالجرح الأول لم يندمل بعد. سقطت علبة الطباشير وتحطمت. لم يكن إدريس عملاقا، لكنْ عندما دخلوا الدار كان المكان متسعا، متلهفا لاستقبال الأساتذة والأستاذات. تُفتح الأبواب الكبيرة في الدخول

وتفتح الصغرى في الخروج. تعلم إدريس الدرس. ضُرب إلى حد الآن مرتين، دائما على جبينه حيث قبّله الوطن ومن الأبواب الصغيرة الكثيرة في المكان. لقد بُورك مرة وأُدْمِيَ مرات. كان اللقاء بك دمويا جزيرةَ الذكور، مدينة الجنوب.

حُدّدتِ القاعة رقم خمسة في دار الحاتمي للعلم على أنها "أغورا" الفلسفة. لم يكن عدد التلاميذ كثيرا. حضور التلميذات كان محتشما جدا. كيف يُعقل أن أرضا بهذه الشساعة وهذا العدد الكبير من القبائل الموغلة في التاريخ لم تثمر إلا بضع سنبلات أغلبها لا تحمل ثمارا. تعجّبَ إدريس وعرف أن مهمته صعبة وضرورية، لأن هناك اضطرابا في علاقة الناس بالمعرفة، لا يرفضونها ولا ترفضهم، لكنْ لا أحد اقترب وقبّل الآخر على جبينه وأعلن زمن البدايات.

مازالت رأسه تؤلمه من الضرب الذي تلقاه من الأبواب الصغيرة وكذلك من السم الذي سقاه إياه جوزيف، بائع ماء الحياة للأموات من الناس.

عاد إلى المنزل مساء، وقبل أن يصعد الأدراج الصغيرة التفت إلى دكان الحياة. راودته على نفسه، لكن معدته تقززت وأحشاءه انتفضت، فقرر أن يموت الليلة على أن يحيا غدا.

صعد الأدراج، وصل الباب، كان حذرا هذه المرة فلم يعد جبينه يتحمل المزيد من الضرب. دخل، وجد المكان مفعما بآهات كاظم الساهر "إني خيرتك فاختاري"... مر بالمرحاض الذي

كان نتِناً وضيقا، حتى أن الاستقامة فيه أمر مستحيل، غير أن الركوع كان ممكنا. مر بسرعة نحو أجمل ما في الدار، نافذتين مطلتين على الشارع والناس ودكان جوزيف. ينظر إدريس من النافذة، يرى جوزيف وسط البراميل، القبعة العجيبة على رأسه. بدا المكان من فوق متسخا، لكن الكحول الذي يصنعه يعقم الدكان ويجعل جوزيف، صاحب السبعين خريفا، مُورد الوجنتين كل صباح.

بدت الأوساخ لإدريس ألوانا. مازال كاظم الساهر يُرتّل صور العشق والحرقة والحب. رغب في الحياة مجددا، خاصة أنها على مرمى حجر منه. نزل ثانية. طلب من جوزيف نارا حارقة. انقبضت أحشاؤه وأحس بالغثيان، لكنه لعن أعضاءه التي لم تتحمل الحياة وأخبرها جميعا بأنه الليلة سيخلط اليهود بأمريكا ويشربهم دفعة واحدة، فهذا أرحم للجميع.

أخذ ما أخذ من جوزيف. وقف عند صاحب الدكان، الذي باعه بالأمس القريب علبة حلوة "ماضلين"، فقال الرجل: "تْريث ماضلين؟"، قال إدريس: "كوكاكولا".

كانت ساخنة جدا، رغم أنها موضوعة في المُبرد، لكن هذا الأخير لم يكن موصولا بالكهرباء، وهذه الأخيرة لم تكن أصلا في الدكان.

أخبرهم المدير بأن العمل سيبدأ غدا. أعدَ إدريس العشاء، وفي كل مرة كان يرشف رشفة من مشروب "اليهوريكا". سماها

كذلك لأنّ ماء الحياة من جوزيف اليهودي وكوكاكولا من أمريكا. لم تكن حياة الليلة كما البارحة، فبعد أن ترنح وداعب كل جدران البيت، جلس منفصلا بعضه عن بعضه الآخر. أخرج الفلسفة من داخله وأخذ ما تبقى من قبلة الوطن على جبينه وجلس بينهما، الوطن على اليمين والفلسفة على اليسار، ثم طلب منهما تحديد ما هو مطلوب منه: "ماذا تتوقعان مني؟ ما هي انتظاراتكما؟"..

تحركت الفئران في المكان. أدرك إدريس أنه تجاوز زمنه، لقد حان زمن الفئران. أطفأ النور ثم نام وترك الفلسفة والوطن يتغازلان، بين الحين والحين. كان يسمع ضحك الفئران، همْسٌ وأنفاس تتسارع، تخبُو، تموت ثم تبدأ من جديد.

استيقظ في الصباح فلم يجد ما تبقى من ماء الحياة التي اشتراها بالأمس. قنينة جوزيف فارغة، لا أثر للماء على الأرض. حينها خجل كثيرا. لقد عرف أنه دفع الوطن إلى فعل الرذيلة. لكن، عندما سأله واعتذر، ضحك الوطن وقال: "لا بأس"، وقتها عرف إدريس أنّ الوطن يحب الحياة.

أكل الأستاذ القطعتين المتبقيتين من حلوة "ماضلين"، شرب كأس شاي ساخن، دخّن سيجارة أو ما يشبهها لعلها تعيد له بعضا من الحياة التي تحضره ليلا وتغادره نهارا. أخذ كل أدواته، جمعها، كدّسها حتى تهشمت عظام بعض الفلاسفة، ثم قصد قاعة الدرس. لم يكن إدريس مثل أهل جزيرة الذكور،

مازالوا ينظرون، يتفحصون، يتساءلون، لكنهم لا يجرؤون على الجهر بما يريدون، يمر كل شيء هناك في صمت، جلابيب في كل مكان، وجوه حاملة لأقنعة تخفي الكثير من الكلام والآلام.

كان البعض من تلاميذ إدريس كبارا في السن، رجالا بلحي ونساء مستعدات للحياة، لكنهم يحتاجون الكثير من الدعم ليُصبحوا عظاما كما كان أجدادهم. لم يكن المدرّس أولَ سقراط حضر إلى جزيرة الذكور، لقد سبقه شخص، أمس ترك أثرا وعلى إدريس حُسن قراءته.

عرف التلاميذ أن المعلم الجديد للفلسفة متخرج جديد. أخافتهم قلة خبرته، فما كان منهم إلا أن قوموه. حاولوا معرفة علاقته بالدين والأمازيغ والأرض. أرادوا أن يعرفوا كل شيء في زمن قياسي، لكن أسئلتهم كشفتهم أكثر مما عرّفتهم بأستاذهم. أظهرت أسئلتهم نمط حياة أهل جزيرة الذكور. كانت اللقاءات الأولى مع تلامذته قاسية، مستفزة. لقد عرف أن المعرفة تبدأ بإدراك الشخص للجهل في ذاته، فبدأ يستخرج الجهل من التلاميذ، يضعه أمامهم، يتفحصونه ثم يدركون كم يحملون من الأوهام عن غير قصد. كانوا متمرّدين، حانقين، غاضبين، ينتقدون أوضاع البلد والناس والأرض. ألصق الكثيرون منهم لحاهم بذقونهم معلنين شيئا ما. تمردٌ غير مؤسس وغير مبني ولا مسؤول. بدؤوا من البدايات، من أنت؟ من نكون؟ ما معنى أن يكون الإنسان إنسانا؟

أتذكر كثرة حضور المرآة في الدرس الفلسفي الإدريسي، لقد قال يوما، وهو يشرح مفهوم الوعي:

"عندما تقفون أمام المرآة وتتجاوزون ما تتقاسمونه مع الآخرين، عندما تتخلصون من كل الأقنعة الأخلاقية والدينية والسياسية، عندما تقفون عراة من كل شيء، تأملوا أنفسكم وما فيها من كذب، حقد، غرور، حب الذات، وأشياء أخرى كثيرة لا يعرفها إلا الله وصاحبها. عندما تصِلون إلى هذا العُري الكاشف، تساءلوا: من صنعنا على هذا النحو ولماذا؟ من نحَتَ شخصيتنا وحدد معالمها؟ ما هو حظنا من الحرية في كل هذا البناء؟ تساءلوا، عودوا إلى الخلف قليلا، تأملوا ثم اخرجوا للبحث عن حقيقة ذواتكم. لا أحد يكون جبانا بمحض إرادته، لكنه قد يُربّى على الجبن والصراخ في صمت، الحب في صمت. تريدون الحكي، لكنْ لا ألسنة لكم، هل أنتم فعلا ما تريدون؟ لِنَقُم بتجربة".

طلب إدريس من الكل إغلاق الأعين ومحاولة استحضار الأفعال والذكريات التي لا يعرفها أحد سواهم، ثم قال:

"أُنظروا، هل أنتم فعلا من أراد القيام بتلك الأفعال التي لا تجرؤون على الإعلان عنها، أم هناك ظروف تجعل الإنسان يكون ما لا يريد أحيانا؟"..

اشتد الحر في قاعة الدرس. تبخرت أدمغة المتعلمين والمتعلمات. فتح إدريس النوافذ، ثم استراحوا قليلا.

عدنا، لكنْ ليس كما كنا. أصبحنا أكثر قلقا وإحساسا بالجهل والعجز والضياع، قلنا جميعا: "ما العمل؟"، قال إدريس: "لنتفلسف، إذن".

الفلسفة مثل ماء جوزيف، تحيي في القسم وتقتل في الخارج، لأن المكان مكتظ بالفراغات، لا حيز فيه للحكمة، التي قال عنها ابن رشد إنها أخت الشريعة. أول الدروس كان حول الإنسان وكذلك كان آخرها، لكنْ بعمق أكبر، رغم أنه لا أول ولا آخر للدرس الإنساني ولا سطح ولا عمق في الإنسان.

تمتد الخطوات في المكان أكثر فأكثر. عرف إدريس الدواوير والناس وأسماء بعض القبائل. أدرك رغم كونه من هناك أنه من هنا أيضا، لأنّ هنا هو هناك في الأصل.

يغلب لون التراب وينتشر. فضاءات ممتدة للرَحّالة والمُتأمل والمُتصوف الزَاهد، لا شيء على وجه الأرض غير القليل من الحياة.

عريقة هي الدواوير والبيوت والناس. هناك تاريخ وذاكرة خلف كل هذه الآثار المرسومة على الجبال والأحجار كالوشم على جبين كل النساء، كل شبر فيك جزيرة الذكور أثر حاضر دالّ على غياب يرفض أن يُنسى.

تبدو الدواوير سُفناً أثينية مُبحرة على أرض بُنّية اللون كأنها التراب. تشبه جزيرة الذكور كل شيء، فهي شبه صحراوية وشبه جبلية وشبه حضرية وشبه قروية، إنها شبه جزيرة.

تعجّبَ واستغرب غنى الفراغات بالأحداث، لكن نصف الكينونة هذا لم يرق إدريس الذي قال: "إما أن تكوني أو لا. شبه الكينونة هذا لا يليق بك جزيرتي، أنت التاريخ وبعض من الذاكرة الحية والكثير من المستقبل".

عرف أنه لكي يُدَرّس عليه التعلمُ أولا. معرفة الناس، ثقافتهم، تمثلهم للدين وللقيم وللتعليم، ألعابهم ولباسهم، طقوس الفرح والحزن، لكنّ أول شيء يحتاجه هو لسان يسمح له ببلوغ عوالم مازالت تبدو مُستعْصية.

يفترض الحوار مع الناس لسانا أمازيغيا، لهذا خرج للتحاور مع الأرض، الدواوير المترامية في كل مكان، بعض الطيور والأفاعي والعقارب، وأنهار جافة إلا من بعض البرك المائية الصغيرة. كان بعض الأساتذة يخرجون كل أحد مستكشفين الفضاءات، حاملين معهم زاد الطريق والكثير من الأسئلة وبعض العصي القصبية التي يتكئون عليها حتى أوصلتهم إلى دوار "تسليت" (العروس) لكل قبيلة عروسها إلا قبيلة "أسمان" (البرق، بالأمازيغية).

كانت تسليت، العروس تلك مورّدة الخدّين، لون التراب فيها زهري والأشجار كالمراهقات شامخات، صخور عالية صلبة شاهدت الكثير وترغب في الحكي، بل حكت، لكنْ، مع الأسف، روت قصتها بالأمازيغية وكان الأساتذة يستمعون باللغة العربية.

ودّع رجال التعليم رجال تسليت. حملوا الألوان من الأرض وصوّروا المكان ثم انصرفوا. هكذا من دوار إلى آخر. كلما اقتربوا من مركز الجزيرة تغيرت ألوان وجوه الناس كثيرا. بدأت جزيرة الذكور تشبه إفريقيا. عاد المستكشفون مساء بالكثير من المعطيات التي تحتاج إلى التحليل وقدرا كافيا من ماء الحياة من عند ابن عمّ العرب، جوزيف.

بدأ المكان يُقدّم دلالات وأصبح للفلسفة طعم آخر. ازدادت مرارة الليل قليلا. أحب إدريس المكان قبل الناس، رغم أن البدايات كانت دموية، فعلى تلك الأرض ما يستحق الحياة كما قال السيد الدرويش بالأمس. للناس هناك ذاكرة كالناس وتاريخ حافل بالأحداث، للمهدي بن تومرت قصص هناك، والبيدق المؤرخ صنهاجي في الأصل. لقد كانوا ربابنة سفن خانتهم الرياح فتاهوا وسط فراغات البحر، أبناءَ ملوك كانوا، ضاعوا ولم يعودوا أبدا.

تحكي الأرض وتروي سِيَرَ الناس، مجد القبائل عندما حاربت من أجل حرية التراب والماء والهواء. لقد مروا من هناك بالفعل. مازالت رائحتهم تعطّر المكان. لم يكونوا يوما همجا ولا رعاعا. كانوا كباقي الناس. الكُحل من صنع النساء. العطر من المسك والقرنفل وزهر الحناء، للعشق نظام وللجمال وجود. كان لون اللعب مستمَدا من التراب وقرون المعز وأدوات أخرى.

عاد إدريس إلى قاعة الدرس، أحب تلامذته بصدق وعرف كم هم كبار بتاريخهم الذي لا يعرفونه، والذي يشهد عليه جبل سرْوَا المقيم هناك، قرب قبيلة أيت أُسْمَانْ.

في جزيرة الذكور يلتقي الناس ويتعارفون. يدركون أنهم، جميعاً، من وطن واحد، لكنهم مختلفون. كان أستاذ اللغة العربية، شريك إدريس في المنزل، من مدينة الراشدية أو ما يعرف قديما بـ"قصر السوق". الشريك الثاني من نواحي مدينة زاكورة. تتقاطع الطرق وتتداخل الثقافات، ورغم ذلك يتشبث كل واحد بأناه ويستميت في الدفاع عنها. ينقسم الوطن ويتشظى حتى يصير دويلات مصنوعة من القبائل. تسود الغرابة وتعلو القبيلة ويعرف الإنسان بانتمائه الجغرافي: أهل الريصاني وطنجة، الحسيمة ومراكش، الرباط وسلا وما جاورهما.

التقى أستاذ اللغة العربية، يوم السوق الأسبوعي، بأحد معارفه الذي كان مديرا لمجموعة مدارس دوار "تِمْغلْدْتْ". لم يستطع الأستاذ التخلص من المدير، جاء به إلى المنزل، أصبح صديقا لهم، يبيت عندهم، يأكل أكلهم ولم يخجل أبدا.

كل يوم يتعرف إدريس إلى عدد كبير من الناس وينسى عددا أكبر، لكن مدير "تِمْغلْدْتْ"، الصديق الجديد بالقهر، كان نشازا. يتحدث عن كل شيء إلا التدريس. أخبر الأساتذة كيف يجمعون المال في الداخل والخارج. كان المدير في العطلة الصيفية يسافر إلى فرنسا ويبيع في شواطئها الإسفنج والقهوة السوداء.

أراد أن يحول الأساتذة إلى يد عاملة لأنه ينوي التوسع. عجبا، معلم، مدير، مرَبّ يبيع القرف للقرف وعندما يُضْبَط، يُخبر الشرطة بأنه مدرّس، فتعفو احتراما للتعليم فقط. قال عبد الله، أستاذ اللغة العربية: "إن ذهبت إلى فرنسا لن أخبرهم بأنني رجل تعليم، سبقَنا المدير إلى فرنسا واحتل كل المكان".

كان المدير، أو الحاج، مُحبا لعلب السردين الرخيصة، خاصة تلك التي يأخذ أو يقترض من مطعم التلاميذ. أحيانا كثيرة كان يأكل أدوات التلاميذ، مسطرات، طباشير، أقلام الرصاص، الأبواب الخشبية لبعض القاعات. كان المدير شرها يأكل التلاميذ والناس.

زار الحاج الأساتذة في أحد أيام فصل الشتاء الجاف هناك. أكل ثم نام بعد الظهيرة. طلب الأساتذة من المدير نزع حذائه ليكون نومه مريحا، لكنه رفض. نام بحذائه. استيقظ بعد صلاة العصر. خرج ثم عاد في المساء يحمل نصف كيلوغرام من الأرز، سلمه لأستاذ اللغة العربية وطلب منه تحضير العشاء.

البرد قارس في الخارج والرياح تصدر أصواتا غريبة ومخيفة، لكن الحاج المدير لم يغادر بعد، لم ينسحب. عرف الأصدقاء الثلاثة أنه لن يرحل، سَيَبِيتُ الليلة بمعيتهم. لم يستطع أن ينام بحذائه، كان لا بد من فعل ذلك، لكنْ عندما أزال الحذاء، تلوث المكان وأصيب الجميع بحالة غثيان. قدَما الحاج المدير نتنتان بشكل لا يطاق. طلب منه إدريس غسل قدميه وألح على

تنظيفهما بمسحوق الملابس "تيد". لم يشعر الحاج بأي حرج، ذهب إلى المرحاض، استغرق وقتا طويلا. وعندما عاد، كان كما ذهب، الأساتذة الآن يشمّون قرفا معقما.

لم يقبل إدريس تقاسم غرفته مع الحاج، وكان من المستحيل أن يتنازل له عن فراشه أو حتى القليل منه. أخذ عدّته والتحق بالرفاق. نام قرب النافذة المطلة على دكان جوزيف طالبا للحياة. إدريس الليلة لاجئ، لم يستطع النوم. عندما انطفأت الأضواء، كان الصمت رهيبا. لم يسمع همس الفئران. لا صوت، لا حركة، فقط شخير الحاج وحده كان يزعج الليل. رحلت الفئران، لم تستطع رئاتها الصغيرة تحمّل الرائحة النتنة التي غزت المكان. في الصباح شكر إدريس المدير لإبادته الفئران، لكنه قرر طرد الحاج لاحقا. أما الآن فسيعتمده طريقا لمصادقة الرجل الطويل المدعو بابا علي، الرجل الأمازيغي الذي يلازم المدير ويرافقه باستمرار.

تساءل إدريس كثيرا عن سبب العلاقة بين الرجلين رغم الاختلاف الكلي في الطبع واللون والهوية وأشياء أخرى هامة، لكنه عرف لاحقا أن الرجل الطويل هو رئيس جمعية أمهات وآباء التلاميذ في دوار تِمْغلْدْتْ. هكذا أدرك الأساتذة كيف اقترنت رائحة المسك وعبق التاريخ بآكل الأقلام والمسطرات والكثير من مدخرات الشركاء الثلاثة.

أحب إدريس علي في الله والذاكرة والوطن. بعد ذلك طرد المدير الحاج من المنزل. عرف مدرس الفلسفة أن بينه وبين الرجل الطويل قصصا لتروى وأحداثاً لتُصْنَع، لقد أصبحا صديقَين.

قُرِعَ الباب مساء، انتفض قلب إدريس والفئران التي عادت إلى الديار. عرفوا جميعا أنه المدير الحاج. قبل أن يفتح أستاذ الفلسفة الباب، أخبر شريكَيه بأنه الليلة سيطرد الحاج نهائيا، لم يعترضا. فتحت الفئران الباب، مستبشرة خيرا بهذا القرار. أراد المدير الدخول، لكن إدريس وقف أمامه بابا لا يُفتح، لقد طرده، تخلص منه إلى حين. عرف المدير الحاج أنه غير مرغوب فيه. لم يتأثر، كعادته. انسحب ثم احتفل الجميع. بعضهم شغل موسيقى الحب والبعض يزيل ما علق به من رائحة الحاج. أطل إدريس من النافدة ثم قال: "لا يحلو الاحتفال إلا بماء جوزيف"، حيّاهُ من النافذة، نزل ثم عاد بقنينة يشبه ماؤها الماء رغم أنه ليس بماء.

يمر الزمن سريعا، تتراكم الأحداث وإدريس لم يصدق بعد أنه أستاذ. لم يستوعب أنه أخيرا خرج من البطالة، عالم التسول. كلما نظر إلى نفسه في المرآة وبحث عن الأستاذ بداخله لا يجد إلا إدريس بن إيدَارْ الكَدْميوي. بحث في كل الخبايا وتفحّص كل الفراغات. عثر على أشياء كثيرة، منها ما هو هامّ، مفرح ومنها ما هو مخجل، لكنه لم يجد صورة للأستاذ. ترك المرآة مخافة أن

تبتلعه نفسه، وضع بعض العطر، ثَبّت كل أعضائه في مكانها ثم قصد قاعة الدرس، حيث يتسول الناس معاني الكلام.

كتب على السبورة الطباشيرية السؤال التالي: "من نكون"؟ ثم راح يتحرك بين الصفوف ويسأل هذا وذاك: "من تكون يا محمَد"؟ و"أنت يا علي"؟ و"أنتِ، اسمك إِجَّة، لكن من أنت"؟ اكتشف الأستاذ أن المُريدين لم يطرحوا هذا السؤال من قبل. ظهر القليل من العرق كالندى على بعض النواصي. احمرّت وجوه البعض الآخر خجلا أو ربما ضجرا من جحيم السؤال هذا، عرف أن الاحتراق قد بدأ.

أجاب أحد التلاميذ بغضب: "أنا محمد بن علي، أنا إنسان". قال المدرّس بعد ذلك: "لكن ما الإنسان بني"؟ مازال إدريس يغوص وضغطُ الأعماق على وشك تفجير هذه الأدمغة الصغيرة الكبيرة. أحس الأستاذ برغبتهم في الصراخ: "ماذا تريد؟ قله دفعة واحدة وانسحب".

كتب على السبورة: "أنا إنسان، مسلم، مغربي، أمازيغي من جزيرة الذكور". لم يكن يستهدف معرفة المسلم أو المغربي أو الأمازيغي، لأن درس اليوم هو الإنسان. أعاد الأستاذ طرح السؤال: ما معنى أن يكون الإنسان إنسانا؟ في مثل هذه اللحظات فقط يعرف إدريس لماذا قبّله الوطن على جبينه عندما طلب منه تعريف الناس بالإنسان فيهم، ويعرف كذلك لماذا تضربه

الأبواب الصغيرة التي لا تستوعب نور الشمس كلما حاول إضاءة المكان.

لم يستسلم، أحب وطنه وقبّل يديه الكريمتين، وقرر أن يواصل الرحلة حتى لو ضربته كل الأبواب الصغيرة في كل بقاع العالم.

الإنسان عقلٌ وتعبير وتطبيق وانخراط في الفعل الصادر عن الذات والمسبوق بالتفكير. ما يهم من الفاعل هو فعله، الإنسان -يا محمد وأنت علي وأنتِ يا إجة- فاعل، منتج ومبدع بالضرورة، لأنه حر وكريم. الإنسان كل هذه الخاصيات وأخرى كثيرة ستحضر لاحقا. أنت فاعل بني، فماذا فعلت؟ هكذا كان إدريس يُحاور تلامذته، متحركا بين بؤس الفلسفة ونعيمها حتى لا يرحل التلاميذ.